لزوجته، وهي التي بذلت الأموال للجند، ومكّنته من الخزائن حتى ملّكوه بعد السلطان قايتباي، فاستمر سلطاناً سنة وسبعة أشهر، ثم خلعوه، وكان قد تلقّب بالأشرف، وأخرجوه من المملكة سنة (٩٠٥) وولي بعده أميران، ولم يثبت قدمهما في السلطنة. ثم أجمع الأجناد على تولية السلطان قانصوه الغوري، وهو غير المتقدم ذكره. وكان من أصغر الأمراء وأحقرهم، ولكن الأمراء الكبار تحاموا الإقدام على السلطنة خوفاً من بعضهم البعض، فولّوا هذا فقبل بعد أن شرط عليهم أنهم لا يقتلونه إذا أرادوا خلعه، فقبلوا منه ذلك، فولي السلطنة في سنة (٩٠٦) وكان عظيم الدهاء قوي التدبير فثبت قدمه في السلطنة ثباتاً عظيماً، وما زال يقتل أكابر الأمراء حتى أفناهم وصفت له المملكة، ولم يبق له فيها منازع، ولكنه مال إلى الظلم والعسف وانتهب أموال الناس وانقطعت بسببه المواريث، فضجَّ أهل مصر ومن تحت طاعته مِنْ أخذِه لأَموالهم، فسلط اللَّه عليه السلطان سَليم سُلطان الروم، فإنه غزاه إلى دياره، ووقع بينهما مصاف، فقتل صاحب الترجمة تحت سنابك الخيل، واستولى السلطان سَليم على مملكة مصر والشام، وصارت إلى أولاده من بعده إلى الآن. وكان ذلك في سنة ٩٢٣ ثلاثٍ وعشرين وتسعمائة.

(٣٧٨)

(السلطان قَايتباي الجَرْكَسي المَحْمُودي الأَشْرَفي ثم الظَّاهري ملك الديار المصرية)[١]

ولد تقريباً في بضع وعشرين وثمانمائة وقدم به تاجر يقال له محمود إلى ديار مصر في سنة تسع وثلاثين وثمانمائة فاشتراه الأشرف بَرْسَباي، ثم ملكه الظاهر جقمق، ثم ترقّى في الخدم حتى صار أمير عشرة ثم أمير طبلخانة ثم صار أتابكاً ثم صار سلطاناً في يوم الاثنين ثالث رجب سة (٨٧٢)، وثبت قدمه في السلطنة وتمكنت هيبته، وصار مقبلاً على أفعال الخير، مقرباً للعلماء والصلحاء محباً للفقراء كثير العدل كثير العبادة، مائلاً إلى العلم كُلِّيةَ الميل، عفيفاً عن شهوات الملوك، حسنةً من حسنات الدهر، لم يكن له نظير في ملوك الجراكسة، ولا فيمن قبلهم من ملوك الأتراك. وحجَّ في أيام سلطنته، وفعل من المحاسن ما لم يفعله غيره، وأحسن إلى الخاص والعام. وله عمارات في كثير من أنواع القربات. وقد طوَّل السخاوي ترجمته في «الضوء اللامع» وذكر كثيراً من محاسنه التي لا يهتدي إليها غيره من الملوك، ولكنه كدّر صفوها، فجعل الترجمة من أولها إلى آخرها سجعاً بارداً جداً، ولم يفعل

(١) ترجمته في: الأعلام: ٥/ ١٨٨.

ذلك في ترجمة غيره. والسبب أنه كان معاصراً له. وقد ترجمه قطب الدين الحنفي في الأعلام ترجمة جيدة، وفي سنة (٩٠١) أراد أن يعزل جماعة من الأمراء ويولي آخرين، وكان مريضاً إذ ذاك، وأنفق بهذا السبب نحو ستمائة ألف دينار. واستمرَّ تارةً يزيد وعكه، وتارة ينقص، ولكنه يظهر الجلد إلى أن عجز وزاد توعكه بحيث حجب الناس عنه، والخلاف بين سائر عساكره متزايد، وأعظم أمرائه قانصوه أخو زوجته، وهو الذي صار سلطاناً بعده كما تقدم، (ومات) صاحب الترجمة يوم الأحد سابع عشر ذي القعدة سنة ٩٠١ واحدة وتسعمائة.

(٣٧٩)

(قرا يُوسُف بن مُحمَّد التركماني)

كان في أول أمره من التركمان الرحّالة، فتنقلت به الأحوال إلى أن استولى بعد تيمورلنك على عراق العرب والعجم، ثم ملك تبريز وبغداد وماردين وأذربيجان وديار بكر وما والاها، واتسعت مملكته حتى كان يركب في أربعين ألف نفس. ثم ملك الموصل سنة (٧٩١). ثم وقع بينه وبين مرز بن بكر بن مرز بن تيمور حرب فقتله صاحب الترجمة في سنة (٨١٣) واستبدّ بملك العراق، وسلطن ابنه مُحمَّد شاه ببغداد. وله وقائع مع جماعة من الملوك منهم شاه رخ بن تيمور. وكان شديد الظلم قاسي القلب لا يتمسك بدين. واشتهر عنه أنه كان تحته أربعون امرأة. وكان شجاعاً سفاكاً للدماء، حتى إنه غزا إلى بعض البلدان فدمّر أهلها قتلاً وسَبْياً وبيع الصبي بدرهمين. (ومات) في ذي القعدة سنة ٨٢٣ ثلاثٍ وعشرين وثمانمائة.

(٣٨٠)

(قُطْبُ الدين بن عَلاء الدين النَّهرواني ثم المَكّي الحَنفي)

العالم الكبير أحد المدرسين بالحرم الشريف في الفقه والتفسير والأصلين وسائر العلوم. وكان يكتب الإنشاء لأشراف مكة. وله فصاحة عظيمة يعرف ذلك من اطلع على مؤلفه الذي سمَّاه (البرق اليماني في الفتح العثماني). وهو مؤلف (الإعلام في أخبار بيت اللَّه الحرام). وكان عظيم الجاه عند الأتراك لا يحجّ أحد من كبرائهم إلّا وهو الذي يطوف به، ولا يرتضون بغيره. وكانوا يعطونه العطاء الواسع. وكان يشتري بما يحصله منهم نفائس الكتب ويبذلها لمن يحتاجها. واجتمع عنده منها ما لم يجتمع عند غيره. وكان كثير التنزهات في البساتين، وكثيراً ما يخرج إلى الطائف،